لبيد يعدد سني حياته

للأستاذ عبد القادر رشيد الناصري

هذا شاعر جاهلي من الذين يتصف شعرهم بالفخامة والقوة والبداوة، وقلة الحشو وقوة اللفظ، ولد في الجاهلية وعاش حتى أدرك الإسلام فأسلم كما يقول:

الحمد لله إذ لم يأتني أجلي حتى اكتسيت من الإسلام سربالا

أما اسمه فلبيد بن ربيعة من بني عامر بن صعصعة وهي قبيلة مضرية، وأما ترجمته فميسورة لكل أديب، كتب عنه صاحب الجمهرة، والشعر والشعراء، والمزهر، لذلك سنضرب عنها صفحا. ولكن الذي يهمنا هو الوقوف عند شعره الجزل الذي عدد فيه سني حياته. إذ لا أظن في العربية شاعرا تطرق إلى هذه الناحية عداه

وقد عمر هذا الشاعر طويلا حتى أن الروايات اختلفت في تاريخ وفاته، فقد قال بعضهم إنه عاش ١٤٠ عاما وقال بعضهم إنه عمر حتى سنة ٤١ هـ ومات في زمن خلافة معاوية بن أبي سفيان وعمره آنذاك ١٧٥ حتى أنه سئم الحياة فقال:

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

وكيف لا يتطرق السأم إلى نفس رجل طال عمره إلى ما بعد المائة بنصف قرن وقد سبقه زهير بن أبي سلمى فقال بصف سأمه وهو في الثمانين:

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولاً لا أبالك يسأم

ولبيد هذا ذكره شوق في رائيته الرائعة من أبي الهول:

وشكوى لبيد لطول الحياة ولو لم تطل لتشكى القصر

وهي قصيدة تعد من عيون الشعر العربي ومن مختارات أبي علي بل من أفخم ما نظمه في حياته

ولبيد هذا أشار إلى منزلته ومكانته في الشعر الإمام الشافعي:

ولولا الشعر بالعلماء يزرى لكنت اليوم أشعر من لبيد

كما نوه باسمه أبو تمام أستاذ الشعر حين قال من قصيدة يمدح أبا عبد الله أحمد بن أبي دؤاد

ظعنوا فكان بكاي حولا بعدهم ثم ارعويت وذاك حكم لبيد

إن كان مسعود سقى أطلالهم سيل الشئون فلست من مسعود

ومطلع هذه القصيدة:

أرأيت أي سوالف وخدود عنت لنا بين اللوى فزرود

قلنا إن الرواة اختلفوا في المدة التي عاشها هذا الشاعر وهذا لا يهم ما دام نفسه قد سجل عمره فقد قال وهو في العشرين:

كأني وقد جاوزت عشرين حجة خلعت بها عن منكبي ردائيا

وإذا علمنا أنه في الأيام الأخيرة أي بعد إسلامه انقطع عن النظم وأنه أقام بالكوفة حتى مات، وعندما وصلت به السن إلى العام العاشر بعد المئة قال:

أليس في مائة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عمر

علمنا صحة ماذهب إليه بعض الرواة من أنه أكمل قرنا ونصف القرن، وهي حياة طويلة بالنسبة لغيره من المعمرين في الجاهلية والإسلام

فقد قال وسنه آنذاك الـ ٧٧ مخاطبا نفسه:

بانت تشكى إلى الموت مجهشة وقد حملتك سبعا بعد سبعينا

فإن تزيدي ثلاثا تبلغي أملا وفي الثلاث وفاء للثمانينا

شعر جميل بالرغم من وجود إشباع في لفظة تزيدي من صدر البيت الثاني كما يقول العروضيون

ثم درجت به السنون حتى أشرف على قمة الثمانين فهتف من أعماق قلبه:

إن الثمانين — وبلغتها — قد أحوجت سمعي إلى ترجمان

يا لله من روعة لفظة وبلغتها، وياسحر هذا الحشو الرائع!

ومضت تلك العجلة — عجلة الحياة — تدور وهي تنهب بالشاعر الأرض حتى أشرفت به على التسعين فصاح صيحة المنهوك الحائر:

كأني وقد جاوزت تسعين حجة خلعت بها عني عذار لجامي

ومثلي بنات الدهر من حيث لا أرى فكيف بمن يرمى وليس برامي(١)

(١) بنات الدهر صروفه ونوائبه. ومن أروع ما رأت من بنات الدهر قول المتنبي في الحمى:

أبنت الدهر عندي كل بنت فكيف خلصت أنت من الزحام

وخلص — بالمكان وصل إليه

فلو أنني أرمي بنبل رأيتها ولكنني أرمي بغير سهام

ألا يرى القارئ هذه الصورة التي وصفها لبيد (رجل أعزل من السلاح يرمي بنبل لا يراها ولكن يحس بوقعها) ألا يشعر بالألم؟ ألا يستحق الرثاء!! ألم تكن هذه السنوات الطوال التي مرت عليه بأعبائها وأثقالها سهاما قاتلة ولكن غير منظورة!. أتعجب بعد هذا منه إذا ما ضاق ذرعا بالحياة .. فهتف بذلك الشعر الجزل الحزين؟

وراح الزمن يسير وإذا بالشاعر يلتفت الى الوراء فيرى أنه قطع سنوات طويلة حافلة بالعجائب، وإذا به كما قلت يصل إلى العاشرة بعد المائة فيقول:

أليس في مائة قد عاشها رجل وفي تكامل عشر بعدها عمر

وهو عمر طويل حقا ولكن ما يقول اذا جاوزها؟ اسمعه وقد مضت عليه عشرون بعد المئة كما يقول الرواة - ولكنه آنذاك لا يسجل السنين كما سجلها من قبل بصرخة صرخة: العزاء

ولئن كبرت لقد عمرت كأنني غصن تفيؤه الرياح رطيب

وكذاك حقا من يعمر يفله كر الزمان عليه والتقليب

مرط(٢) القذاذ فليس فيه مصنع لا الريش ينفعه ولا التقصيب

ويريد بهذا أن الذي يقطع تلك الفجوة الطويلة من الحياة يصبح كالطائر الذي نتف شعره من جراء كر الزمان عليه وكثرة ما مر عليه من عواصف الحياة، فكيف يستطيع بعد ذلك الطيران؟!

ويقول الرواة أو شعره على الأصح أنه عندما أحس بالموت يدنو منه، وأن حياته ستختم.. نظر إلى أولاده وهم حوله يبكون فقال

تمنى ابنتاي أن يعيش أبوهما وهل أنا إلا من ربيعة أو مضر

وفي ابني «نزار» أسوة إن جزعتما

وإن تسألاهم تخبرا فيهم الخبر

فقوما فقولا بالذي قد علمتما ولا تخمشا وجها ولا تحلقا شعر

وقولا هو المرء الذي لا خليله أضاع ولا خان الصديق ولا غدر

إلى الحول ثم اسم السلام عليكما

ومن يبك حولا كاملا فقد اعتذر

(٢) مرط الشعر نتفه، ومرط خف شعر جسده فهو أمرط. والقذاذ قذ الشعر قصه وسواه. السهم الصق الريش به. الريش قطع أطرافه وحرفه.

٢٠ . ٣٧

نعم هو من ربيعة ومن مضر، وكيف ينكر الموت وهو الرجل المؤمن الذي يقول عنه الرواة أن رسول الله (ص) قال فيه «أصدق كلمة قالها شاعر كلمة لبيد» ويعني قوله

ألا كل شيء ما خلا الله باطل وكل نعيم لا محالة زائل

وهو نفسه يقول في شيخوخته

إن تقوى ربنا خير نفل وبإذن الله ريثي والعجل

أحمد الله ولا نـد له بيديه الخير ما شاء فعل

من هداه سبل الخير اهتدى ناعم البال ومن شاء أضل

والذي يقول

وما المرء إلا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد ما هو ساطع(٣)

وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوما أن ترد الودائع

وما الناس إلا عاملان: فعامل يتبر ما يبغي، وآخر راقع(٤)

والقائل يصف الموت أيضا

وكل أناس سوف تدخل بينهم دويهية تصفر منها الأنامل

فهل بعجيب إذن لا يطلب من بنتيه أن لا تبكيا من موته؟ اسمعه وقد سئل عن رأي الناس فقال

المرء يدعو للسلا م وطول عيش قد يضره

كم شامت بي إن هلكت وقائل لله دره

ولكن ما يهم الميت الذي ينفض الحي ترابه من راحته أن يقول فيه ما يقول؟ أليس الموت غاية الحياة؟ أو ليس الناس اثنين إما قادح أو مادح

وبعد هذه كلمة قصيرة ذكرنا فيها طرفا من شعر لبيد الذي سجل فيه سني حياته، ولبيد هذا من الشعراء البارزين في الجاهلية فقد جاء في الصفحة ٢٩٧ من الجزء الثاني من الزهر «وسئل لبيد من أشعر الناس؟ فقال: الملك الضليل ثم الشاب القتيل (طرفة) ثم الشيخ أبو عقيل ويعني نفسه» وهو صاحب المعلقة الشهيرة

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

وجلا السيول عن الطلول كأنها زبر تجد متونها أقلامها

فوقفت أسألها وكيف سؤالنا صما خوالد ما يبين كلامها

(٣) حار. رجع رد

(٤) تبر. أهلك ودمر

٢- رحلة إلى الحجاز

للشيخ مصطفى البكرى الصديقى
للأستاذ سامح الخالدى

ومن باب السلام لقد دخلنا وأهدينا السلام من السلام

ومنها هذا الفخر الرائع الذى يذكرنا بفخر ابن كلثوم. وغير مستغرب من لبيد أن يفخر وهو الشاعر الشريف ذو المجد الأثيل والحسب العريق، ومن الذين لم يكتسبوا بالشعر وهو الذى قال عنه صاحب الجمهرة (كان لبيد جوادا شريفا فى الإسلام والجاهلية » والتى قالت عنه عائشة رضى الله عنها : رحم الله لبيدا ما أشعره فى قوله

ذهب الذين يعاش فى أكنافهم وبقيت فى خلف كجلد الأجرب
لا ينفعون ولا يرجى خيرهم ويعاب قائلهم وإن لم يشغب

فهذا شأن شاعر جواد شريف الا يحق أن يفخر فيقول من — المعلقة —

من معشر سنت لهم آباؤهم ولكل قوم سنة وإمامها
فبنوا لنا ملكا رفيعا سمكه فسما اليه كهلها وغلامها
فاقنع بما قسم المليك فإنما قسم الخلائق بيننا علامها
وإذا الأمانة قسمت فى معشر أوفى بأعظم حظنا قسامها
فهم السعاة اذا العشيرة أفظعت وهم فوارسها وهم حكامها
وهو ربيع للمجاور فيهمو والمرملات اذا تطاول عامها

هذا ما عن لى ذكره ولا أريد أن أختم البحث دون أن أشير الى بيتيه الخالدين

لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصى
ولا زاجرات الطير ما الله صانع
سلوهن ان كذبتمونى متى الفتى
يذود المنايا أو متى الغيب واقع

ولنا رجعة إن شاء الله الى هذا الشاعر حيث نأخذ شعره وحياته وأخباره بالتفصيل .

بغداد عبد الغفار رشيد الناصرى

وقفنا عند شباك نزبه ودمعى فى اشتباك وانسجام الخ

وتذكرت فى هذا المقام قول الإمام سيدى أحمد بن الرفاعى قدس الله سره:

فى حالة البعد روحى كنت أرسلها
تقبل الأرض عنى وهى نائبتى
وهذه دولة الأشباح قد حضرت
فامدد يمينك كى تحظى بها شفتى

« ثم صليت تحية المسجد لدى المنبر ، وتذكرت قصيدة من نفائس القصائد نقلتها من مجموع جامع ، وكان رآها شيخنا الشيخ محمد بن إبراهيم الدكدكجى ، فأخبرنى أن جناب شيخنا النبى(١) بربه ، سمع فى زيارته منشدا لها على سدة الحرم النبوى والمسجد ، فأجرت المدامع كالسحب الهوامع ، فطلبها ليثبتها فى رحلته الكبرى ، فلم يجب الطلب ، والقصيدة هى :

يا عين هذا السيد الأكبر وهذه الروضة والمنبر
فشاهدى فى حرم المصطفى من نوره الساطع ما يبهر

« وعطفنا بعد هيئة على زيارة بقيع الفرقد ، وصرنا بعد الزيارة والطواف على من حل فيه من أهل الإشارة ، نتردد على الحرم المنير ، وكانت ليلة دخولنا المدينة الثلاثاء وأقمنا الأربعاء والخميس ، وذلك الخامس والعشرون من ذى القعدة ، ولم يتيسر لى المبيت فى حرم التبيت إلا ليلة الحبور ، ولذا سميت بالخميس ، وبعد أن صليت العشا جلست فى الروضة الجنانية ، مواجها الحجرة الشريفة الأمانية ، وختمت كتاب الدلائل ، وصليت ما تيسر ، تقدمت إلى ما بين الأسطوانتين ، مستقبلا الوجه الأزهر ، ولم أتقدم إلى الشباك ، واستأذنت فى عرض (ورد السحر) على أسماعه الكريمة ، فأتممته وأنا بين يديه واقع ، وكنت إذ ذاك وحدى ، وتقدمت يسيرا لقبالة وجه جدنا الأعلى الصاحب فى الثار ، فعرضته عليه ، وواجهت وجه سيدى عمر بن الخطاب وكررته على أسماعه . ثم أتيت باب جبريل ، وأعدته ، ثم بيت الزهراء أتيت ، وبالباب صافرا وقفت وقرأته راجيا بشفاعة

(١) هو الشيخ عبد الغنى النابلسى ، أستاذ الشيخ البكرى ، القطب المتصوف الرحالة